الباب الخامس

الدعوة إلى الله
وتكليف الأمة
منهاج أولي العزم من الرسل

obeikandl.com

obeikandl.com

الدعوة إلى الله

(١) تمهيد في الدعوة إلى الله

إن الله أنزل الكتب وشرع الشرائع، وبعث الأنبياء واختار الدعوة إليه لإصلاح الثقلين محكمة من عنده، صالحة للأولين والآخرين، فهي الأمر المجتبى لخير الخلق بالهدى، وإرشاد الخلق بالتقى، لطيب عيش في العلى، عن ظلم قلب والعمى، قول وفعل ودعاء، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [سورة يونس: آية ٢٥].

وقال عن نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: آية ٤٥، ٤٦].

وزكى كلام دعاته بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة فصلت: آية ٣٣].

ولعظم شأنها وقداستها اختار لها صفوة خلقه، نظر إلى قلوبهم فوجدها أطهر القلوب، فوهبهم أقدس الأعمال وهو دعوة المخلوق لمعرفة الخالق جل وعلا، علماً بأنه سبحانه قادر على أن يهدي الثقلين بالأسباب وبدون أسباب.. فقال جل وعلا: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [سورة يونس: آية ٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [سورة السجدة: آية ١٣] فمن سنته في الهداية إرسال الأنبياء تترا، كل نبي يجتهد في الدعوة إلى الله على قومه، حتى يتوفاه الله تعالى ثم يخلفه من بعده نبي آخر بحمل

رسالة الدعوة إلى القوم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۖ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٤٢، ٤٣، ٤٤]. وهذه الدعوة التي اختارها الله تعالى لدمغ الباطل وإحقاق الحق، جعل أسلوبها محكماً بقبضته وإرادته جل وعلا، فهي تحمل الهداية والنصرة في آن واحد، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾ [سورة الأنبياء: آية ١٨].

(٢) الأسلوب القرآني يختلف باختلاف ظروف الدعوة

لقد نال تفصيل الدعوة إلى الله ﷻ في كتاب الله الكريم الحظ الأوفر من النصوص المحكمة، والآيات البينة، والأساليب المختلفة للأنبياء في دعوتهم إلى الله، فجاء بشرح مفصل وبسط شامل لتلك الأساليب، إفهاماً وتعليماً للأمة كي تأخذ بتلك الأساليب القرآنية، في قيامها بالدعوة إلى الله بما يستدعيه حال المدعو وظروفه، فكل نبي أرسله الله لقومه خاصة ويعتمد بأسلوبه في الدعوة إلى الله ﷻ على الوحي الرباني في إيجاد المنهاج الدعوي الذي يتناسب مع قومه، وجاء أسلوب القرآن بشرح لأساليب الأنبياء مع أقوامهم من صبر وتحمل وتنقل وترحال من مكان إلى مكان، وهجر للأهل والأوطان وقتل وتجريح وإنكار للمعجزات وتكذيب بالمغيبات.

قال أبو الحسن الندوي رحمه الله: إن من إعجاز القرآن أن موضوع الدعوة وكلها الله إلى العقل السليم والذوق المستقيم والعقيدة الراسخة والفكرة المتغلغلة في الأحشاء، ثم أحاطها بسياج واحد وهو: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [سورة النحل: آية ١٢٥].

فالإعجاز الكامل في قوله تعالى (ادع) وهي لا تختص بالخطابة

ولا بالوعظ والنصيحة وإنما «ادع» والدعوة شاملة أساليب كاملة موافقة للكتاب والسنة وفي قوله «**إلى سبيل ربك**» كلمة أوسع أفقاً، وإن كلمة «**الحكمة**» عربية لا أعتقد ترجمتها أو نقلها إلى لغة أخرى، وكذلك «**الموعظة الحسنة**» كلمة مطلقة، حيث جاء القرآن بحل المشكلة «**فأطلق، وقيد، وأوجز، وأعجز**» فتأمل كيف جاء القرآن بأسلوب إثارة الحنان الأبوي وذلك في قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام لأبيه: «**يا أبت**» حيث جاء بأسلوب التواضع وخفض الجناح لهذا المقام الأبوي. انتهى كلامه[1].

وتأمل قصة يوسف عليه السلام وما تحمل من أصول الدعوة إلى الله، وهي تعرض قصة الفتى الذي يتعرض للكثير من المحن والمصاعب ككيد الأخوة، وإلقائه في الجب، ومحاولة المرأة إغواءه وفتنته، ثم دخوله السجن بسبب موقفه النزيه، ومن ثم خروجه من السجن وتقريب الملك له وجعله على خزائن الأرض، ثم لقائه بإخوانه وعفوه عنهم واجتماع شملهم مرة أخرى، وما في ذلك من الدروس والعبر النافعة، وأخبر الله عز وجل عن قيام يوسف عليه السلام بالدعوة إلى توحيد الله تعالى ونبذ الشرك والانخلاع من الأوثان، والتوجه إلى عبادة الله تعالى وحده وسلوك طريق الهدى والرشاد، وتلطفه عليه السلام بمن يدعوهم، وحرضه على هدايتهم حتى وهو في أحلك الظروف وأصعبها من السجن ورميه بالتهم الباطلة، ولكنه قدم أمر الدعوة على حظوظ النفس ورغباتها ليقدم للداعي إلى الله نموذجاً رائعاً في الرحمة على الخلق والصبر على البلاء والمحن، يقول تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ

(١) روائع من أدب الدعوة لأبي الحسن الندوي، ص١٣ (بتصرف يسير).

مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يوسف: آية ٣٧ ـ ٤٠].

لقد عرضت قصة يوسف عليه السلام أصولاً للدعوة إلى الله في موقف يوسف عليه السلام مع صاحبي السجن، في حكمة الداعي في حسن استماعه لمن يدعوهم ومعرفة ما عندهم، وذلك ناتج عن ثقتهم فيه وفي مسلكه واتصافه بصفات المحسنين وتلطفه بهم وترغيبه في الخير وبما ينفعهم ويخفف عنهم عناء السجن، وذلك ببشارته لهم بالطعام والشراب من قبل أن يصل إليهم، وبداءته عليه السلام بالأهم فالمهم من أمور الدعوة وأسسها، فكان تقريره للوحدانية الإلٰهية وعدم الإشراك بالله تعالى في عبادته وموازنته بين الأمور بمعيار الحكمة والعقل الراجح، وهو ما ينبغي أن ينتبه إليه كل داعية إلى الله، فمثلاً لم يبدأ يوسف عليه السلام بتلبية طلبهم وتفسير أحلامهم وهو ما يريدونه ويرغبونه، بل تلطف بهم ومهد لهم إلى ما هو أهم من أحلامهم ومناهم، وهو توحيد الله وعبادته، وضرب لهم المثل بنفسه من تركه لملة قوم لا يؤمنون بالله، واتباعه لملة التوحيد واستخدامه عليه السلام لأسلوب التساؤل، وهذا الأسلوب هام جداً في إثارة العقل وحفزه على التفكير وعقد المقارنة واستخلاص النتائج، ويظهر هذا في قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة يوسف: آية ٣٩] وأخيراً بعدما دعاهم إلى الله وأبان لهم وجه الحق والصواب، استجاب لطلبهم وحقق رغبتهم وفسر لهم أحلامهم، فهذه بعض من أساليب القرآن في تعليم الدعاة إلى الله من هذه الأمة، والأساليب القرآنية المتنوعة جاءت معظمها في جهد الرسول ﷺ لأنه مسك

الختام للنبيين وبعثته عالمية للناس كافة[1].

(٣) الأسلوب القرآني في تحميل الأمة الإسلامية مسؤولية الدعوة العالمية:

لقد عطّش الله البشرية بإيقاف بعث الأنبياء منذ بعثة سيدنا عيسى عليه السلام إلى بعثة سيدنا محمد ﷺ قرابة خمسمائة وستين سنة، ذلك الحكم الذي جعل الفصل في عالمية الدعوة المباركة وتحميل الأمة الإسلامية مسؤولية الدعوة العالمية، فإن أمرها بعيد وساحتها واسعة جداً، ولها مساحة زمانية ومساحة مكانية وكلتاهما واسعتان، أما الزمانية فهي تمتد من مصدر الدعوة وهو نبينا محمد ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كذلك لها مساحة مكانية واسعة في المشرق والمغرب والشمال والجنوب، ولاتساع دائرة الدعوة من «يا قوم» إلى «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾» [سورة الأعراف: آية ١٥٨] ولاتساع رقعة الأرض واختلاف أمزجة البشر، اختلفت الأساليب الدعوية وتنوعت مع ظروف الحياة التي يعيش عليها البشر، فجاء القرآن ببسط شامل وشرح مفصل لأساليب جميع الأنبياء مع أقوامهم، وإظهاراً لقداسة الدعوة والقائمين بها، وتثبيتاً لقلوب الدعاة السائرين على الدرب القرآني والنهج الرباني أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بالشورى تعليماً للصحابة والأمة التشاور حول المسؤولية العالمية للدعوة بعد وفاة نبيهم ﷺ.

قال تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٥٩] ذلك لإحاطتهم بسياج الإيمان ونبذ الخلاف والاعتصام حول الكتاب والسنة، وأثنى الله على أقوام ومخلوقات لأنهم قاموا بالدعوة والتضحية لبني جنسهم، وخلد ذكرهم على معبر من الزمن علماً بأنهم

---

(١) الشرح والتعليق لقصة يوسف عليه السلام من كتاب وسائل الدعوة د. عبد الرحيم المغزوي ص ٤٨ (بتصرف).

لم يكلفوا بالدعوة إلا تطوعاً.

فشرح القرآن عن قصة مؤمن فرعون بقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة غافر: آية ٤١].

وذكر الجن بقوله: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الأحقاف: آية ٣١].

وذكر قصة النملة بأنها أمرت وحذرت واعتذرت فقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة النمل: آية ١٨].

وذكر الهدهد بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة النمل: آية ٢٢] ومن خلال استعراض الآيات تبين أن القرآن يلقى بظلاله على تلك المخلوقات التي قامت بالدعوة إلى الله لبني جنسهم وذلك لإقامة الحجة على الأمة الإسلامية في عدم قيامها على الدعوة العالمية.

انقسام الدعوة إلى قسمين:

(١) دعوة الفقهيات والأحكام الشرعية:

١ ـ تعريفها.

هي العلم بالأحكام الشرعية العملية المستنبطة من أدلتها التفصيلية.

٢ ـ حكمها الشرعي.

فرض كفاية على الأمة إن قام بها البعض سقط عن الآخرين[(١)].

---

(١) مدخل في الفقه الإسلامي، محمود طنطاوي، ص١٤.

دليلها من القرآن في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [سورة التوبة: آية ١٢٢].

٣ ـ دليلها من السنة:

إن رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**»[1] قلت: فهذا دليل على أن رسول الله ﷺ انتدب لهذا الأمر العظيم رجلاً واحداً رأى فيه مقومات الدعوة إلى الله بالفقهيات والمسائل والقدرة على بيان الأحكام الشرعية، وأنه لم يكلف جماعة بذلك.

٤ ـ التوزيع في الأمة من هذه الطائفة التي تعتبر بمثابة السراج المنير والدواء للعليل، وذلك في كتابة المصنفات الإسلامية وإنشاء مجامع البحوث والموسوعات الفقهية، والقيام بتولي النظم والقضاء والفتوى وشرح أحكام العبادات والمعاملات والمواريث وغيرها.

٥ ـ دعوة التبليغ والنصح للمسلمين.

١) إنه بسبب ختم النبوة وانقطاع الرسالة اجتبى الله جميع طبقات الأمة رجالاً ونساءً للقيام على مسؤولية الدين والنصح لجميع المسلمين في العالم قاطبة دون استثناء كل بحسبه.

● السبب في انقسام الدعوة على قسمين: فقهيات ـ ونصح للمسلمين.

---

(١) الحديث متفق عليه.

إنه في بداية الدعوة التي قام بها رسول الله ﷺ في مكة المكرمة لم يتنزل شيء من الأحكام، فكان الوحي يتنزل بآيات التوحيد والصبر والتحمل لتثبيت قلوب الصحابة من قصص الأمم السابقة، فكان كل من الصحابة يدعو إلى الله ﷻ بالكلام الذي يسمعه من رسول ﷺ، وهذا القسم هو دعوة التبليغ والنصح للمسلمين، أما في المدينة المنورة وبعد نزول الأحكام الشرعية والفرائض انتدب لهذا الأمر العظيم خواص الأمة وهم البعض الذين تفرغوا لدراسة الفقه والمسائل كمعاذ بن جبل وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم أجمعين.

٢ ـ الدليل من القرآن على دعوة التبليغ والنصح للمسلمين في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [سورة التوبة: آية ٧١] فبينت الآية أن كل فرد من أفراد المجتمع رجالاً ونساءً اتصف بصفة الإيمان وجب عليه القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح للمسلمين.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [سورة يوسف: آية ١٠٨] ذكر ابن كثير في تفسيره: إن الله أمر رسوله أن يخبر الناس أن هذه سبيله أي طريقه ومسلكه وسنته وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعي إليه على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي وينزه الله عن كل شريك أو نظير أو عديل أو نديد أو والد أو ولد أو صاحبة أو وزير تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً[1].

فتبين من تفسير ابن كثير أن كل من اتبع النبي ﷺ من هذه الأمة

(١) تفسير ابن كثير، ج٢، سورة يوسف: آية ١٨٠.

لم يستثنى من أحد في القيام بالدعوة إلى الله وأنه يدعو على يقين ممن يدعو إليه وهو الله تبارك وتعالى.

ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١١٠].

قال عمر ﷺ: «**من أراد منكم أن يكون من تلكم الآية فليؤدي شرط الله فيها وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**» وفي شرح الآية الكريمة أنها عامة لكل فرد من أفراد الأمة كل فرد بحسبه وإنما فضلت هذه الأمة بنبيها ﷺ، بعثه الله بشرع عظيم كامل لم يعطه نبياً ولا رسولاً من الرسل، فالعمل على منهاجيته يقوم مقام العمل الكثير من أعمالهم[١].

وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال: «**بايعت رسول الله على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم**»[٢] فالمبايعة كانت على النصح لجميع المسلمين في المنشط والمكره، وعن تميم بن أوس الداري قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدين النصيحة**»، قلنا لمن يا رسول الله، قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[٣].

وفي شرح الحديث «**الدين النصيحة**» أي عمود الدين وقوامه، النصح لله: الإيمان به ونفي الشرك عنه ووصفه بصفة الكمال وتنزيهه عن النقائص، والنصح لكتابه: الإيمان بأنه كتاب الله المنزل على رسوله وتعظيمه وتلاوته حق تلاوته، والنصح لرسوله: تصديقه والإيمان بطاعته في أوامره ونواهيه والنصح لأئمة المسلمين في معاونتهم على الحق، والنصح لعامة المسلمين بإرشادهم لمصالحهم

---

(١) شرح رياض الصالحين، مطبعة النهضة، مكة المكرمة، باب الأمر بالمعروف، ص١٢٣.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

في دنياهم وأخراهم[1].

٣ ـ تكليف الأمة بالدعوة على منهاج أولي العزم من الرسل

أولاً: تمهيد وشرح لدعوة أولي العزم من الرسل من سورة الشورى:

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِىَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِى شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣، ١٤، ١٥].

تعريف الشريعة:

أ. المعنى اللغوي لتعريف الشريعة[2].

- هي مورد الماء الجاري الذي يقصد للشرب.
- هي الطريقة المستقيمة المحكمة لا ينحرف نظامها ولا تلتوي عن مقصدها.

ب. المعنى الاصطلاحي لتعريف الشريعة:

هي الأحكام التي سنها الله لعباده على رسول من الرسل.

---

(١) رياض الصالحين، باب النصيحة، ص١٢٢.

(٢) التعريف اللغوي والاصطلاحي، مدخل الفقه الإسلامي لمحمود الطنطاوي، ص١٣.

قلت: والجمع بين التعريفين أمر لا مشاحة فيه لبيان المقصد فألفاظهما ظاهرة جلية.

وخلاصة التعريفين أن الله جل وعلا شرع لإقامة الدين في حياة البشرية أحكاماً سنّها لهم بمنهاج شامل كامل على طريق أولي العزم من الرسل، والسبب في ذلك أن هذه الأمة أظهرها الله تعالى على سائر الأمم وهي آخر أمة أخرجت للناس، لأنها تحمل تكاليف الشريعة فتنطلق بها إلى العالم أجمع، ثم إن هذه الشريعة التي عرّفت بمنبع الماء الجاري هو الأصل الذي يتفجر ويخرج منه الماء طاهراً في نفسه مطهراً لغيره بسبب حركته وجريانه فينتفع به خلق كثيرون.

وأعني بذلك التوضيح الذي يدور حول حركة الأمة وتنقلها بالدعوة إلى الله في أربعة محاور:

المسجد ـ البيت ـ القرى المجاورة ـ العالم قاطبة.

فهي تشبه الماء الجاري المتحرك بين السهول والجبال والوديان والبلدان فينتفع به الإنسان والطير والحيوان والزرع والأشجار، وأنها إذا تبوتقت حول نفسها تكون كالماء الراكد الذي لا يصلح للشرب أحياناً، أي إذا تركت المسؤولية العالمية للدعوة إلى الله، وعكفت على دنياها فإن الباطل يستشري فيها ويحل الهوان عليها.

ويتبين من التعريفين كذلك أن الشريعة تلك الأحكام التي سنها الله ﷻ للرسل بطريقة مستقيمة لا ينحرف نظامها ولا تلتوي عن مقصدها، وهي شريعة التوحيد الخالص لإقامته في البشرية جميعاً انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١١٠].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٤].

ذكر ابن كثير: في تفسيره لهذه الآية: أن كل فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه[١] وفي قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [سورة النور: آية ٥٤].

ذكر ابن كثير في قوله تعالى: «**فإن تولوا**» أي إن تتولوا عنه وتتركوا ما جاء به ببلاغ الرسالة وأداء الأمانة وبقبول ذلك والقيام بمقتضاه لأنه يدعو إلى صراط مستقيم[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣] ذكر البيضاوي: إن الضمير في قوله تعالى «**لكم**» يعود على هذه الأمة، أي شرع لكم من الدين هو دين نوح ومحمد ومن بينهما من أرباب الشرائع وهو الأصل المشترك فيما بينهم. انتهى كلامه[٣].

وذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: تضمنت ذكر الخمسة كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ﴾ [سورة الأحزاب: آية ٧] وذلك لقيامهم بالقدر المشترك بينهم وهو عبادة الله وحده[٤] انتهى كلامه.

---

(١) تفسير ابن كثير، ج١ سورة آل عمران، آية ١٠٤.

(٢) تفسير ابن كثير، ج٣، سورة النور، آية ٤٥.

(٣) تفسير البيضاوي، ج٤، سورة الشورى، آية ١٣.

(٤) تفسير ابن كثير، ج٣، سورة الشورى، آية ١٣.

قلت: والجمع بين التفسيرين في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ أي لهذه الأمة «من الدين» هو عبادة الله وحده لا شريك له والدعوة إليه «من الدين» وهي التبعيضية، أي ذلك البعض هو تشريع الله الذي خص به الأمة الإسلامية بإقامة التوحيد في البشرية جميعاً على منهاج أولي العزم من الرسل، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣].

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها**»[١] وهذا دليل على تحقيق النصر ونزول التأييدات الغيبية، وفي ذلك امتثال الأمة الإسلامية للحكم التشريعي في تبليغ الرسالة العالمية للبشرية جميعاً[٢].

ولقد أظهرت خيريّتها على سائر الأمم بأنها تحمل تكاليف الشريعة لتنطلق بها إلى العالم أجمع، فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١١٠].

وبين الله سبحانه وتعالى شهادتها على الأمم في قوله تعالى: ﴿وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: آية ٧٨].

وإن العبادات التي كلفت بها الأمة الإسلامية من صلاة وزكاة وصيام وحج، كانت تقوم بها الأمم السالفة، كل أمة بالتشريع الذي

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٤، سورة الشورى، آية ١٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ،ج١٠، ص٣٤٠.

obeikandl.com

وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة هود: آية ٣٥] فتبرأ إجرامهم ولم يتبرأ من المجرم، تبرأ من المعصية ولم يتبرأ من العاصي، فهذا تعليم للأمة أن تقوم مقام نوح عليه السلام بأنه اجتهد على قومه ليلاً ونهاراً يدعوهم إلى الله ﷻ وكذلك البراءة من المعصية لا البراءة من العاصي.

(٢) اشتراك الأمة الإسلامية مع نبيها بميزة البعث للبشرية جميعاً:

أ. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣].

هذا خطاب للنبي محمد ﷺ عن وصية الله تعالى له وللأنبياء من قبله من الرسل الذين يحملون رسالة التوحيد الخالص لله تعالى، ويبلغونها للناس ،كل نبي إلى قومه خاصة، فكان الحكم الرباني قدراً مقدوراً في قطع إرسال الأنبياء وتكليف النبي محمد ﷺ في حمل أعباء الدعوة العالمية، وهذا الحكم الرباني حمل الاجتبائية والاصطفائية للأمة الإسلامية بالقيام على ما قام به نبيها لتبليغ الدين إلى العالم برمته.

يقول أحد العلماء: «**إن الله ما صلى صراحة في القرآن على أحد من الأنبياء إلا على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وذلك في قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الأحزاب: آية ٥٦] والله جل وعلا صلى على أمته ﷺ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٤٣] والسبب في صلاة الله تعالى على النبي ﷺ وعلى أمته أنه ﷺ اشترك مع أمته بميزة البعث والإخراج للبشرية جميعاً. انتهى كلامه[1].

ذكر الحافظ الواحدي: في كتابه أسباب النزول عن مجاهد،

---

(١) بيان الشيخ عمر بالمبوري، أحد علماء جماعة التبليغ، مركز الدعوة، الهند.

قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ قال أبو بكر رضي الله عنه: ما أعطاك الله من خير إلا وأشركتنا فيه فنزلت: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ وذكر الواحدي عن الأصمعي.

قال: سمعت المهدي يقول عن صلاة الله للنبي وأمته: آثره ﷺ بها من بين الرسل واختصكم بها من بين الأنام، فاقبلوا نعمة الله بالشكر[1].

وعن ابن كثير في تفسيره في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [سورة الأحزاب: آية ٤٣] قال: هذا تهييج إلى الذكر بأنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم كقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [سورة البقرة: آية ١٥٢].

أخرج البخاري عن أبي العالية بأن صلاة الله تعالى ثناؤه على العبد عند الملائكة: وقال غيره: الصلاة من الله الرحمة، ولا منافاة بين القولين[2].

ذكر الحافظ الواحدي: عن سهل بن محمد بن سليمان يقول: هذا التشريف الذي شرف الله تعالى به نبينا ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ أبلغ وأتم من تشريف آدم بأمر الملائكة بالسجود له، لأنه لا يجوز أن يكون الله مع الملائكة في ذلك التشريف، وقد أخبر الله تعالى عن نفسه بالصلاة على النبي، ثم الملائكة بالصلاة عليه، فتشريف صدر عنه أبلغ من تشريف تختص به الملائكة من غير جواز أن يكون الله معهم في ذلك[3].

---

(١) كتاب أسباب النزول لأبي الحسن الواحدي النيسابوري، ص١٩٨، المطبعة العصرية، بيروت.

(٢) تفسير ابن كثير، سورة الأحزاب، ج٣، آية ٧.

(٣) أسباب النزول للواحدي، سورة الأحزاب، آية ٥٦، ص ١٩٨.

وذكر ابن كثير في تفسيره عن صلاة الملائكة كما في الحديث الذي سبق: يقصد بها الدعاء للناس بالاستغفار كقوله تعالى عن الملائكة: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [سورة الأحزاب: آية ٧][1].

ب. لفظ البعث يدل في فحواه على «الشمولية».

ولما اشتركت الأمة الإسلامية مع نبيها ﷺ بصفة البعث يدلك هذا اللفظ على العموم الذي يقصد به استنفار جميع طبقات الأمة لحمل مسؤولية الدعوة كل بحسبه، الذي بينه تعالى بقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ﴾ [سورة التوبة: آية ٧١].

فمن خلال النظر والتمعن في كتاب الله الكريم حول لفظ البعث فإنه يأتي أحياناً على سبيل الشمولية والعموم، فمثلاً لو نظرنا في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة المائدة: آية ٣١] يتضح لنا أن الله جل وعلا جاء بلفظ البعث بفعل الغراب في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة المائدة: آية ٣١] فلفظ البعث في الآية يدل في فحواه أن سنة الحفر للموتى جاءت من عصر ابني آدم إلى أيامنا هذه، والدليل على عمومية لفظ البعث في ابتعاث النبي ﷺ إلى الثقلين في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [سورة الجمعة: آية ٢] والنبي ﷺ يتكلم عن نفسه بشمولية الابتعاث في قوله: «**ما بهذا**

(١) تفسير ابن كثير، ج٣، الأحزاب، آية ٧.

بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم»[1] وقال ﷺ **«إني لم أبعث باليهودية، والنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة، والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»**[2] ويدلك خطاب النبي ﷺ واختياره للفظ البعث في غرس مسؤولية الدعوة العالمية وإثارتها في نفوس الصحابة في قوله ﷺ: **«إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»**[3].

وهم فهموا مراد الشارع الحكيم من تحمل أمانة البلاغ، فقاموا يتحركون بدعوتهم بلفظ البعث بقولهم: **«إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد»**[4].

وفي قوله ﷺ: **«إن الله سيبعث لهذه الأمة كل مائة سنة من يجدد لها دينها»**[5].

يدل هذا الحديث بأنه إذا كان تجديد في الأمة لا يأتي إلا على قيام بعث الأمة الإسلامية وتحريكها بالجهد على المقصد الذي أفردها من أجله وهو إنقاذ البشرية من براثن الباطل، سواء بفرد أو أفراد أو جماعات، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة يوسف: آية ٢١].

---

(١) أخرجه ابن جرير، عن ابن عباس ﷺ، تفسير ابن كثير ،ج٣ص٦٢، والبداية، ج٣ ص٥٠.

(٢) رواه أحمد في مسنده والتبريزي في المشكاة ص٩٩، باب كتاب الجهاد رقم ٣٨٤٩ / ٦٣.

(٣) أخرجه البخاري، عن أبي هريرة ﷺ، أخرجه أبو داود في السنن، ص٣١.

(٤) قول للصحابي / ربعي بن عامر لرستم قائد الفرس في معركة القادسية، أورده ابن كثير في البداية ج٧ ص٣٨ والطبري ج٤ص١٠٥.

(٥) رواه أبو داود في السنن (٣١) كتاب الملاحم (١) باب ما يذكر في قرن المائة رقم (٤٢٩١) وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٥٢٢ كتاب الفتن والملاحم، والتبريزي في المشكاة ص ٨١ باب العلم رقم (٢٤٧ ـ ٥٠).

(٣) تكليف الأمة الإسلامية بالدعوة أخذاً من منهاج إبراهيم عليه السلام.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣] وهي دعوة التوحيد الخالص والاستسلام لله تعالى على كل حال، دعوة لازمها فراق الوطن والزوج والولد، دعوة تفضي بالداعي إلى الله ﷻ التأمل في الجهد الإبراهيمي الذي رافقه الانقياد التام على كل حال، لقد أمر إبراهيم عليه السلام بترك الزوجة والولد بواد غير ذي زرع، امرأة ضعيفة وزاد قليل وطفل رضيع وجبال محيطة موحشة ومخيفة.

ذكر الشيخ محمد بن العثيمين في كتابه القول المفيد: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [سورة النحل: آية ١٢٠] قوله تعالى: ﴿أُمَّةً﴾ أي إماماً وهو ثناء من الله تعالى على إبراهيم بأنه إمام متبوع ثم إنه ﷺ قدوة في أعماله وأفعاله وجهاده، فإنه جاهد قومه وحصل منهم عليه ما حصل وألقي في النار فصبر ثم ابتلاه الله تعالى بالأمر بذبح ابنه وهو وحيده وقد بلغ معه السعي (أي شب وترعرع) فليس كبيراً قد طابت النفس منه، ولا صغيراً لم تتعلق النفس به كثيراً فصار على منتهى تعلق النفس به ثم وفق إلى ابن بار مطيع لله قال تعالى عنه: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة الصافات: آية ١٠٢].

لم يحنث عن والده ويتمرد بل أراد من والده أن يوافق أمر ربه وامتثلا جميعاً وأسلما وانقادا له، وقوله «قانتاً» دوام الطاعة والاستمرار فيها على كل حال وقوله: «حنيفاً» أي مائلاً عن الشرك مجانباً لكل ما يخالف الطاعة فوصف بالنفي والإثبات أي بالوصفين الإيجابي والسلبي قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تأكيداً أنه لم يك من المشركين طول حياته، والدليل على ذلك أن الله جعله إماماً ولا يجعل الله للناس إماماً من لم يحقق التوحيد أبداً، إذ أنه في غاية من الصبر

ومراتب اليقين، وكيف يصبر على هذه الأمور العظيمة إلا من كمل توحيده وأيقن بالثواب. انتهى كلامه[1].

وما تلك التضحيات الإبراهيمية إلا نبراساً للأمة الإسلامية في إرساء قواعد التوحيد الخالص على ذات الله ﷻ.

ذكر أبو الفضل أحمد ابن عطاء: في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة النجم: آية ٣٧] جعل جسده للنيران، وطعامه للضيفان وولده للقربان، وقلبه للرحمن. انتهى كلامه[2].

إن الملة الإبراهيمية هي ملة التضحيات الكبرى والفوائد العظمى، وموعظة للمتقين لمن نصب نفسه في طريق الدعوة أن لا يصده ولد ولا زوجة ولا وطن ولا مال عن دعوة الناس إلى الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة القصص: آية ٨٧] فأي شيء يصدك عن الدعوة إلى الله وآياته واستمكنت محبته في قلبك من دون الله فقد وقعت في الشرك، والملة الإبراهيمية هي ملة تقود الداعي إلى التوحيد الخالص وتقديم حب الله على ما سواه، ولقد زكى الله تعالى الملة الإبراهيمية بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [سورة النساء: آية ١٢٥].

وأمر الله نبيه أن يأخذ بالمنهاج الإبراهيمي بقوله: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ﴾ [سورة النحل: آية ١٢٣] وأمر أمته كذلك أن تأخذ بالمنهاج الإبراهيمي بقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [سورة الحج: آية ٧٨] وحذر الله من ترك الملة الإبراهيمية بقوله:

---

(١) كتاب القول المفيد لمحمد بن العثيمين، ص ٨٠ (بتصرف).

(٢) التنوير في إسقاط التدبير، أبو الفضل أحمد ابن عطاء الله، ص ١٠٥.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [سورة البقرة: آية ١٣٠].

(٤) تكليف الأمة الإسلامية بالدعوة أخذاً من منهاج موسى عليه السلام

لقد أخذت قصة موسى عليه السلام وقومه الحظ الأوفر في كتاب الله الكريم، فجاء بشرح مفصل عن منهاج موسى في الدعوة إلى الله لبني إسرائيل، وما وقع بهم من العذاب والهلاك، إذ أنه لا توجد أمة كبني إسرائيل أظهرت لها المعجزات عياناً وهم ينكرون ويلحدون استكباراً وعلواً في الأرض وفساداً، ولقد ضربت منهاجية موسى المثل الأعلى في الدعوة إلى الله، وذلك في إرساء قواعد الصبر للدعاة المخلصين وبيان لهذه الأمة في تحقيق الخلافة في الأرض، حينما انطلقت تلك الكوكبة من بني إسرائيل في طريق التضحيات مع موسى عليه السلام للدعوة وإرجاع كرامة بني إسرائيل، إذ هم من سلالة الأنبياء، حيث سلط الله عليهم فرعون وجنوده يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، ولما تحركت كتيبة الدعوة إلى الله عز وجل من بني إسرائيل اجتمع فرعون وجنوده ليسوموا موسى وقومه أشد العذاب: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [سورة الأعراف: آية ١٢٧].

وازداد العذاب والبلاء على تلك الكتيبة المؤمنة فجاءوا يهرعون إلى موسى يشكون ما حل بهم من البلاء والفتنة: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة الأعراف: آية ١٢٨] فشكوا حالتهم قبل الدعوة وبعدها ازداد البلاء ولكن موسى عليه السلام يعلم أن ذلك هو التمحيص لاستخراج الفئة التي تكون أهلاً لنصرة الله وتأييده، وتحقيق الخلافة في الأرض ولا تكون تلك الفئة المنصورة إلا بثلاث: الاستعانة بالله والصبر والتقوى:

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [سورة الأعراف: آية ١٢٩].

فأوحى الله إلى موسى وأخيه هارون أن يتبوأ لبني إسرائيل من بيوتهم قبلة ودعاء ويقيموا الصلاة فيها، بقوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّـَٔا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة يونس: آية ٨٧] ذكر ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾ أي أمروا أن يتخذوها مساجد، فهو ما أوصاهم بزوال البلاء والفتنة عن طريق القوة المادية أو قوة السلاح أو قوة العتاد والعدة، بل أوصاهم بحقيقة نزول النصرة الغيبية عن طريق الأعمال الشرعية التي أمرهم الله بها، فامتثلوا لما أمروا به وصبروا واحتسبوا، فلما رأى موسى امتثالهم لتلك الأوامر الشرعية وعرف أنهم أهلاً لنصر الله وتأييده رفع يديه بالدعاء وأمن من ورائه هارون:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [سورة يونس: آية ٨٨] فأمرهم الله أولاً بالاستقامة على الأعمال الشرعية وبتحققها فيهم تحققت الإجابة بقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة يونس: آية ٨٩].

قال ابن جريج عن ابن عباس فاستقيموا لأمري: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1] أي لا تستمعوا لقول من لا يعلم عن تلك المنهاجية التي تعلمونها أنتم، وتلك الأوامر الشرعية التي كلفتم بها،

(١) تفسير ابن كثير، ج٢، سورة يونس آية ٨٩.

ويقول ابن جريج: مكث فرعون بعد هذه الدعوة أربعين سنة حتى أهلكه الله تعالى.

وقال محمد بن كعب وعلي بن الحسين أنه مكث أربعين يوماً[1]، ونزلت نصرة الله الغيبية موافقة للأوامر الشرعية لتلك الكوكبة من المؤمنين المستضعفين في الأرض بما صبروا على البلاء وصبروا على الأوامر الشرعية حتى أورثوا الأرض بقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [سورة القصص: آية ٥].

ودمر الله القوة المادية الطاغية وهي قوة الملك والسلطة وقوة المال والأسباب الظاهرية بقوة الأحكام والأوامر الشرعية الغيبية الربانية في قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ۝١٣٦ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٣٦ ـ ١٣٧] فهذا نبراس للأمة الإسلامية في دمغ الباطل وإحقاق الحق والخلافة في الأرض ولا يأتي ذلك إلا عن طريق، تكوين الفئة التي تدعو إلى الله، والتي تتحرك في المشرق والمغرب والشمال والجنوب لتكوين قاعدة الخلافة في الأرض، والتي تكون أهلاً لنصرة الله وتأييده، ثم الصبر على الدعوة وما يعتريها من تمحيص وابتلاء فإن الصبر هو عمود الدعوة وما ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا وذكر الصبر بعدهما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة: آية ٢٤].

---

(١) المرجع السابق.

وقال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [سورة لقمان: آية ١٧].

وقال تعالى في الاصطفاء للدعوة: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة فصلت: آية ٣٥].

وقال تعالى عن القائمين بالدعوة: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [سورة العصر: آية ٣] وقال تعالى ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴿٧﴾﴾ [سورة المدثر: آية ٧] اصبر على متاعب الدعوة، واصبر على فراق ولدك وزوجك ووطنك، تكن بالحق مبلغاً وبالآفاق مؤثراً.

(٥) تكليف الأمة بالدعوة أخذاً من منهاج عيسى عليه السلام.

وأما منهاج عيسى عليه السلام في الدعوة إلى الله فإنها تميزت بالترحال من مكان إلى مكان سياحة في الأرض وتنقلاً من واد، إلى واد ومن سهل إلى سهل، دعوةً لخالق الكون، دعوة يدعو فيها الداعي إلى الله بآلائه ونعمائه ونقمائه وهيمنته، دعوة يبحث فيها المتأمل في الأجرام الكونية عن دقائق الأسرار، وعن عجيب قدرة الله تعالى والكون المحيط الذي أبدعه بإرادته جبار السمٰوات والأرض الذي له المنة والفضل في كل نعمة أنعمها على خلقه، وله الحق في توحيده وله الحق في الدعوة إليه وقطع المسافات وبلوغ الآفاق لمعرفته والسياحة في الأرض من أجله، هذه السياحة التي أخبر عنها محمد ﷺ: «**سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله**»[1] دعوة عالمية وجهد متصل بالليل والنهار دعوة نوح عليه السلام، بعث للبشرية جميعاً دعوة محمد عليه الصلاة والسلام، وفراق للمحبوبات والشهوات دعوة إبراهيم عليه السلام، وصبر وجلد وتحمل دعوة موسى عليه السلام، وسياحة في الأرض، دعوة عيسى عليه السلام.

---

(١) الحديث رواه أبو داود بإسناد جيد.

قال ابن القيم رحمه الله: «أين أنت من طريق تعب فيه آدم، وناح فيه نوح، ورمي في النار الخليل، وأضطجع للذبح إسماعيل، وذبح السيد الحصور يحيى، ونشر بالمنشار زكريا، وبيع يوسف بثمن بخس، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وتحمل أنواع البلايا محمد عليه الصلاة والسلام[1].

(٦) مفهوم قيام الأمة على الصراط المستقيم

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٥٣].

ذكر الشيخ محمد بن صالح العثيمين في كتابه «القول المفيد» حول الآية السابقة قال الشيخ: ففي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾ يحتمل أن المشار إليه ما سبق من الآية في وصية الله للبشر، لأنك لو تأملته وجدته محيطاً بالشرع كله، إما نصاً أو إيماء، ويحتمل أن المراد به ما علم من دين الله، أي هذا الذي جاءكم به الرسول هو صراطي، أي الطريق الموصل إليه سبحانه وتعالى، والصراط يضاف إلى الله تعالى ويضاف إلى سالكه، ففي قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الفاتحة: آية ٧].

هنا أضيف إلى سالكه وفي قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [سورة الشورى: آية ٥٣] هنا أضيف إلى الله جل وعل،ا فإضافته إلى الله ﷻ لأنه موصل إليه ولأنه هو الذي وضعه، وإضافته إلى سالكه لأنهم هم الذين سلكوه وقوله ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ هذه حال من صراط أي حال كونه مستقيماً لا اعوجاج فيه فاتبعوه وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ السبل، أي الطرق الملتوية

---

(١) كتاب الفوائد، باب هكذا فلتكن الرجال، ص٦٧.

الخارجة، عنه وتفرق: فعل مضارع منصوب بأن بعد فاء السببية، لكن حذفت منه تاء المضارعة، وأصلها (تتفرق) أي أنكم إذا اتبعتم السبل تفرقت بكم عن سبيله وتشتت بكم الأهواء وبعدت.

وقوله كذلك «**السبل**» جمع سبيل، وفي الطريق التي أضافها الله إلى نفسه قال: «**سبيله**» سبيل واحد لأن سبيل الله ﷻ واحداً وأما ما عداه فسبل متعددة، ولهذه قال النبي ﷺ: «**وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة**» انتهى كلامه[1].

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة: آية ٣].

لقد كمل الدين وتمت نعمت الله على الأمة وظهرت الشريعة بيضاء نقية لا يزيغ عنها إلا هالك، وشرح القرآن الكريم وصية الله الخالدة والسبيل الموصل إليه، إذ هو صراط مستقيم لا اعوجاج فيه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٥٣].

وهو الدين الإسلامي بكماله وتمامه وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة المؤمنون: آية ٧٣].

لقد أمر الله نبيه ﷺ أن يدعو أمته إلى سبيل واحد يكون فيه هدايتهم واستقامتهم وهو قيام الأمة على طريق الدعوة إلى الله تعالى، فقال تعالى لنبيه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [سورة يوسف: آية ١٠٨] ذلك السبيل الذي يجمع شتات الأمة على مقصد واحد وهو إقامة الدين في البشرية جميعاً، قال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢/ ٣٣٢) وسنن أبي داود (٤٥٩٦) والترمذي (٢٦٤٠) وابن ماجه (٣٩٩١) والحاكم وصححه (١/ ١٢٨).

[سورة الشورى: آية ١٣] فمبتغى ومطلب كل موحد من هذه الأمة أن يكون على الصراط المستقيم وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [سورة الفاتحة: آية ٦، ٧] وهم القوم الذين اختارهم الله تعالى دعوة وعبادة إليه، وإذا أمعنا النظر في الآيات القرآنية التي تتكلم عن الدعوة إلى الله تعالى نجد أنه قد تلتها آيات الاستقامة.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٢٥﴾ [سورة يونس: آية ٢٥].

﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [سورة: الحج: آية ٦٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [سورة فصلت: آية ٣٠].

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾ [سورة الشورى: آية ١٥].

ذكر ابن القيم رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٥٣] فوحد سبيله لأنه في نفسه واحد لا تعدد فيه، وجمع السبل المخالفة لأنها كثيرة متعددة كما ثبت أن النبي ﷺ خط خطاً ثم قال: «**هذا سبيل الله**» ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره ثم قال: «**هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**».

ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٥٣][(١)].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٦٥، ٤٥٣) والطيالسي (٢٤٤) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٣/ ١١١٧٤) والدارمي (١/ ٧٨/ ٢٠٢) وابن حبان (١/ ١٨١/ ٧) والحاكم (٢/ ٢٣٩/ ٢١٨) وحسنه الألباني في المشكاة (١/ ٥٩/ ١٦٦).

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٧] فوحد النور الذي هو سبيله وجمع الظلمات التي هي سبل الشيطان، ومن فهم هذا فهم السر في إفراد النور وجمع الظلمات في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [سورة الأنعام: آية ١] مع أن فيه سراً ألطف من هذا يعرفه من يعرف منبع النور ومن أين أفاض وعن ماذا حصل وأن أصله كله واحد. انتهى كلامه[1].

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم الجوزية، ص ٢١٠.

obeikandl.com

خلاصة البحث

عن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٥٣] هو دين الله الكامل لكل ما شرع الله ﷻ من الأحكام عن طريق نبيه ورسوله محمد ﷺ، ولكي لا تتفرق بالأمة الإسلامية السبل أمرها تعالى بسبيل واحد يكون فيه عزها وخيريّتها واستقامتها فقال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣].

ثالثاً: حصول الفرقة في الأمة بترك منهاجية أولي العزم من الرسل أخذاً من سورة الشورى:

أ. قال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣].

لقد انتظمت الآية الكريمة عند قراءتها كاملة ذكر الأسماء الأربعة لأولي العزم من الرسل، كما شرحت منهاجية الشريعة التي بينها الله جل وعلا للأمم وشرّعها للأمة الإسلامية خاصة، لإقامتها في البشرية جميعاً في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣] ذلك المنهاج الشامل الكامل الذي لا ينحرف نظامه ولا يلتوي عن مقصده، فبأي خلل في المنهاجية التي رسمها الله للأمة يدب الخلاف

فيها ويحل الهوان عليها، فأمر الله تعالى الأمة الإسلامية بإقامة الدين على منهاج أولي العزم من الرسل الذي بينه سبحانه بقوله: «**ولا تتفرقوا فيه**».

أي في عدم إقامتكم على تلك المنهاجية وذلك التشريع الرباني الذي هو بمثابة الماء للزرع، وبمثابة الروح من الجسد، فبأي نقص أو أي خلل في ذلك النظام الكامل الشامل تضمحل أعمال الشريعة من حياة المسلمين يوماً بعد يوم، وتكون كالزرع الذي تذروه الرياح، أو كالجسد الذي خرجت منه الروح عبادات صورية خرجت عن مضمونها وانحرفت عن مقصدها للوصول إلى تقوى الله ﷻ.

وبترك الأمة الإسلامية لتلك المنهاجية الربانية يكون النقص في أعمال الشريعة على الآتي:

١ ـ دخول البدع والشركيات في الأمة.

٢ ـ النقص في السنن والفرائض.

٣ ـ ارتكاب الكبائر والصغائر من المعاصي.

٤ ـ اشتداد غضب الله ونزول العذاب على الأمة الإسلامية.

٥ ـ التمزق والتفرق في البلاد وإحكام أهل الباطل قبضتهم على الأمة.

وسبب الذل الذي حل بالأمة الإسلامية والتمزق والتفرق في البلاد وإحكام أهل الباطل قبضتهم عليها، هو أنها تخلت عن طريق الخيرّية الذي شرفها الله به وأظهرها على سائر الأمم، وهو إقامة الدين في البشرية جميعاً، فأصبحت تمشي في التيه الذي هو أشبه بتيه بني إسرائيل، فمن رحمة الله ﷻ بهذه الأمة أن سهل لها طريق الاعتصام الذي يربط الأمة بعضها ببعض بقيام جميع طبقات الأمة بأخذ مسؤولية الدعوة التي تجمع فكر الأمة المتشتت على فكر واحد

وهو إقامة الدين في البشرية جميعاً الذي بينه تعالى بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣] فإذا كانت الطرق مختلفة والآراء متشعبة فكيف يكون الاعتصام؟ وجواب ذلك من سورة آل عمران التي بينت الآيات فيها أن الأمة كانت على شفا حفرة من النار وفي تمزق وشتات، فقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٣].

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٤].

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٥].

فوضحت تلك الآيات البينات أن الأمة كانت على شفا حفرة من النار فأنقذها الله برسوله، إذ اجتهد على إخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الفرقة إلى الاجتماع ورفع راية الدعوة في البشرية جميعاً، وفي نهاية حياته خوفاً عليهم من الفرقة والاختلاف جمعهم في صعيد واحد الرجال والنساء وخطب فيهم من الصباح حتى المساء وأخبرهم عما كان وسيكون على هذه الأمة وكيف المخرج من الفتن.

«عن زيد بن عمرو بن أخطب رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر حتى حضرت الظهر فنزل فصلى، ثم صعد المنبر حتى العصر، ثم نزل فصلى حتى غربت الشمس، فأخبرنا ما كان وما هو كائن فأعلمنا أحفظنا»[1].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٩٢).

ويدل على ذلك حديث العرباض بن سارية ﷺ قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصانا قال: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهدين عضوا عليها بالنواجد وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة**»[1].

وعن زيد بن أرقم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا وإني تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله وهو حبل الله من اتبعه كان على هدى ومن تركه كان على ضلالة**»[2] ذلك الحبل المتين هو كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام والدعوة لإقامتهما في الإنسانية جميعاً وهو الذي بينه تعالى من كتابه الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٣] إلى قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٤] والذي بينه ﷺ في حجة الوداع من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «**بلغوا عني ولو آية**»[3] في رواية عبد الله بن عمر ﷺ قال: «**فليبلغ الشاهد الغائب، ويلكم أو ويحكم أنظروا ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**»[4].

ولقد أخذ الصحابة ﷺ بوصية الاعتصام وهي (قيام جميع طبقات الأمة على خلافة الدعوة إلى الله بعد رسول الله ﷺ) والتي

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٤) متفق على صحته.

أوصاهم الله تعالى بها، وأوصاهم رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وهي إقامتهم على فكر واحد لتبليغ الدين إلى العالم برمته، فخرجت جحافل الصحابة ﷺ ممتثلة للأمر الرباني والهدي النبوي بعد وفاة النبي ﷺ، حيث ساحوا في الأرض ليبلغوا دين الله ﷻ، فلم يلتفتوا إلى دنياهم ولا إلى شهواتهم مما كلفهم حب الله ورسوله ودينه ترميل النساء وتيتيم الأبناء ﷺ أجمعين، ولما تركت الأمة المنهاجية التي شرّعها الله ﷻ وهي الدعوة إلى الله تعالى تفرقت وأصبحت دويلات ضعيفة هانت عند الله وهانت في دنيا الناس تفترسها الأمم كما يفترس الذئب الغنم، فلا حول ولا قوة إلا بالله، والدليل على ذلك من السنة المطهرة ما بينه معاوية بن أبي سفيان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أهل الكتاب افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به»**[1].

ولبيان سبب نزول العذاب على الأمة في عدم قيامها على منهاجية الاعتصام وهي (قيام جميع طبقات الأمة على خلافة الدعوة بعد الرسول ﷺ) قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعونه فلا يستجيب لكم»**[2].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أول ما دخل**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أحمد والترمذي عن حذيفة، وقال الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٠٧٠) حسن.

النقص في بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتّقِ الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض» فقرأ ﷺ ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [سورة المائدة، الآيتان: ٧٨، ٧٩] ثم قال ﷺ مخاطباً الأمة (والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب): «**كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما لعن بني إسرائيل**»[1].

ذكر الحافظ المناوي في الاتحافات السنية: «**إن الله ﷻ أمرنا أن نأمر بالمعروف وأن ننهى عن المنكر لئلا يأتي يوم فتفشو فيه المعاصي وتتسلط علينا الآفات والبلايا والمصائب بترك ذلك فندعو الله سبحانه فلا يجيب لنا دعاء ونسأله كشف ذلك فلا نعطى ونستنصر بالله من عدونا وما حل بنا فلا ينصرنا ولا يلتفت إلينا**»[2].

تسليط الظلمة على أمة الإسلام بترك الدعوة إلى الله

لقد استشرى الظلم بين العباد فسلط القوي على الضعيف، والحاكم على المحكوم، والكافر على المسلم، وانتشر الفجور سواء كان ذلك بين الأفراد أو بين الجماعات أو بين الشعوب، يقول شيخ الاسلام ابن تيمية: «**إن الله لينصر الدولة الكافرة العادلة على الدولة المسلمة الظالمة " ويحل غضب الله على كل بلد انتشرت فيه**

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود بإسناد حسن (ت٤٣٣٦، ت ٣٠٥٠).

(٢) الاتحافات السنية في الأحاديث القدسية، لزين الدين المناوي، ص١٦٤.

المعصية ولا يؤمر فيه بالمعروف ولا ينهى فيه عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة هود: آية ١٠٢].

وعن أم المؤمنين زينب بنت جحش ﵂ قالت، قال رسول الله ﷺ: «**ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج وحلق بإصبعيه الإبهام والسبابة، فقالت زينب ﵂: أنهلك وفينا الصالحون، قال نعم إذا كثر الخبث**»[1] فهي ﵂ لم تقل أنهلك وفينا المصلحون ولكن قالت أنهلك وفينا الصالحون، لأن المعصية إذا ظهرت في أمة من الأمم ولم تغير تكون سبباً لغضب الله وعقابه ولو كان فيها أناس صالحون يعمهم ذلك العذاب لأنها ما تمعرت وجوههم إنكاراً لتلك المعصية واكتفوا بالصلاح لأنفسهم والدليل على ذلك في قوله ﷻ:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [سورة هود: آية ١١٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [سورة الأنعام: آية ١٢٩] قال الرازي رحمه الله: إن الرعية متى كانوا ظالمين فإن الله يسلط عليهم ظالماً مثلهم فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم الذي يفعلوه فإن تاب الظالمون عن ظلمهم وأخذ المصلحون على أيديهم فمنعوهم عن الظلم تاب الله عليهم وهدى ولاتهم وأمراءهم وجعلهم عليهم رحمة بعد أن كانوا عليهم نقمة أو يبدلهم منهم غيرهم من عباد المصلحين الصالحين[2].

---

(١) متفق عليه.

(٢) سماحة الإسلام لصادق عرجون، ص٧٣٧.

ولقد جرت سنة الله في القدم أن الذي يتخلى عن الدعوة إلى الله يستبدل الله من هو خير منه ويتخلى عنه قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ [سورة محمد: آية ٣٨].

قال الصحابة من هؤلاء إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ فضرب النبي ﷺ على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه ثم قال عليه السلام: **«هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس»**[1] وفي قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [سورة الجمعة: آية ٣]. قال الصحابة من هم يا رسول الله فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً وفينا سلمان الفارسي رضي الله عنه فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال: **«لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء»**[2].

(ب) لفظ الاجتباء يربط الأمة الإسلامية بالأنبياء بجهد الدعوة إلى الله

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣].

قلت: لقد أصبحت الدعوة إلى الله أمراً ماضياً في الأرض حتى يرث الله الأرض ومن عليها، تقوم بها جماعة الإيمان وأمة الإسلام تتلقى الأمر الماضي والنداء الرباني لتقود البشرية وتستأنف المسيرة هدف عظيم لأمة عظيمة في دعوة عظيمة وحين تمضي الدعوة إلى الله على هذا السبيل وبهذا التلقي فإنها تمضي على عين الله وفي عنايته ورحمته، فله الأمر وله الحكم وإليه المصير فلا يحدد مستقبل الدعوة جهد المؤمنين وحدهم، ولكنهم يبذلون الطاعة ويقومون بالتكاليف

---

(١) أخرجه مسلم وتفسير ابن كثير، سورة محمد.

(٢) رواه مسلم والترمذي والنسائي وتفسير ابن كثير، سورة الجمعة.

والدعوة في مضيها هذا تكتسب التجربة والخبرة لتنقلها إلى جيل جديد فتمتد الدعوة نمواً وقوة وشدة وصلابة ويقيناً وثباتاً مادامت قائمة على المنهاج الرباني الذي بينه تعالى بقوله:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣] أي منهاج أولي العزم من الرسل الذي اجتبى الله له صفوة خلقه من البشر وهم الذين قال فيهم سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [سورة النساء: آية ٦٩] واصطفاهم لحمل رسالة البلاغ بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣].

معنى الاجتباء في هذا الموضع من الآية: هو الاصطفاء والاختيار من الخليقة لحمل رسالة البلاغ للبشرية.

وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣] يقول ابن كثير في تفسيره: «**هو الذي يقدر الهداية لمن يستحقها ويكتب الضلالة على أثرها على طريق الرشد**» انتهى كلامه[1].

والنظر في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ فإنه تبارك وتعالى يخاطب الأمة الإسلامية بلفظ الاجتباء الذي يخاطب به الأنبياء ذلك لأنها اشتركت مع الأنبياء بمسؤولية الدعوة إلى الله ﷻ فقال سبحانه وتعالى لإبراهيم عليه السلام.

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٣، سورة الشورى آية ١٣.

﴿ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة النحل: آية ١٢١] وقال عن يوسف عليه السلام ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [سورة يوسف: آية ٦].

وخاطب الأمة الإسلامية بقوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج: آية ٧٨] وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى: آية ١٤].

ذكر البيضاوي في تفسيره لهذه الآية إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم وقيام الحجة عليهم وما حملهم على ذلك من العناد والمشقة. انتهى كلامه(١).

فهذا تحذير للأمة الإسلامية من أن تقوم مقام الأمم السابقة بجحود العلم وإنكاره، وها نحن نرى أحوال المسلمين لما تركوا تلك المنهاجية الربانية وانقسموا في تحصيل العلم الشرعي إلى فريقين:

الأول: ركز على تحصيل العلم وتبوتق حول نفسه واكتفى بذلك.

الثاني: جاهل بأمر دينه عكف على دنياه ونسي الله والدار الآخرة وقليل من يدعو بما علم، وفي قوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ﴾ [سورة الشورى: آية ١٥].

ذكر ابن كثير في تفسيره: أي استقم أنت ومن تبعك على عبادة الله تعالى كما أمرك الله بالذي أوحينا إليك وما وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم من الرسل. انتهى كلامه(٢).

---

(١) تفسير البيضاوي، ج٣ ـ ٥، سورة الشورى آية ١٤.

(٢) تفسير ابن كثير، ج٣، سورة الشورى آية ١٥.

بعض الصفات التي يكتسبها الداعي لقيامه بالدعوة إلى الله ﷻ:

١ ـ استعلاء بالمقصد السامي الذي يتحرك من أجله بأنه يدعو إلى الله.

٢ ـ يتحصل الداعي على قوة اليقين والتوكل وتزكية النفس بقدر تضحيته للدعوة إلى الله.

٣ ـ الشفقة والرحمة على الخلق لما يرى من ارتكابهم للمعاصي وتفلتهم عن طاعة الله ﷻ.

٤ ـ بقدر مخالطته للبيئة التي يتحرك فيها يكتسب الخبرة الواسعة في التعامل مع الخلق لإيصالهم إلى طاعة الله ﷻ، فالبادية تختلف عن حياة الحضر، والمُزارع يختلف عن صياد البحر، فإذا أبحر الداعي في بحر الإنسانية اكتسب إحاطة بعلوم وأسرار الدعوة فيقرب الخلق إلى الله بالشيء الذي تشربته قلوبهم شوقاً إليه.

٥ ـ بقدر مخالطته للناس يكتسب علاقات أخوية معهم.

٦ ـ الصبر والتحمل على متاعب الدعوة وعلى فراق الأهل والوطن.

٧ ـ إظهار حب الإسلام على جميع المحبوبات وذلك بهجرتها والسفر إلى أقطار أخرى للدعوة إلى الله.

٨ ـ التجديد في الحياة الزوجية والخروج من متاعب الحياة، وذلك بعد رجوعه من السفر الطويل إلى وطنه وأهله.

تأصيل حركة الداعي وفقاً للضوابط الشرعية:

١ ـ إن حركة الداعي لها ضوابطها الشرعية، وذلك لقيامه بالدعوة إلى الله جلباً للمصلحة ودرءاً للمفسدة، فأي عمل يقوم به الداعي إلى الله يعتبر تأصيلاً للأحكام الشرعية، فإما أن يؤثر سلباً أو إيجاباً في تأصيل تلك الأحكام بين الناس، وله خطورته على الدعوة إلى الله فعليه أن يبحث في الأدلة من

الكتاب والسنة وبفهم سلف الأمة عن تلك الضوابط الشرعية حتى يزن حركته في الدعوة إلى الله بميزان الشريعة، لا بميزان الهوى والنفس.

٢ ـ الأدلة على تلك الضوابط الشرعية في تقيد حركة الداعي بميزان الشريعة. ذكر ابن كثير في تفسيره عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ [سورة المدثر: آية ٥] أي اترك المعصية[١].

عن ثعلبه الخشني رضي الله عنه أنه جاء إلى النبي يسأله في قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [سورة المائدة: آية ١٠٥] قال ﷺ: «**ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر فإذا رأيتم شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام، فإن من ورائك أياماً، الصبر فيهن مثل قبض على الجمر للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله**»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «**من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط عليه وأسخط عليه الناس**»[٣].

وقال أبو شامة عن مبارك عن الحسن البصري رحمه الله: «**السنة والذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي، فاصبروا رحمكم الله فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم فكذلك إن شاء الله فكونوا**»[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٤ سورة المدثر آية ٥.

(٢) أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجه في كتاب الفتن.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه.

(٤) من كتاب الزهد والرقائق، أحمد فريد، ص١٩٥.

قال ابن القيم، إنكار المنكر أربع درجات:

١ ـ أن يزول ويخلفه ضده.

٢ ـ أن يقل وإن لم يزل من جملته.

٣ ـ أن يخلفه ما هو مثله أو أن يخلفه ما هو شر منه.

٤ ـ فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب لله ورسوله كرمي النشاب وسبق الخيل، وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب أو سماع مكاء وتصدية فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد وإلا كان تركهم على ذلك من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك فكان ما هم فيه شاغلاً لهم عن ذلك وكما إذا كان الرجل مشتغلاً بكتب المجون ونحوها خفت من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحرة فدعه وكتب المجون. انتهى كلامه[1].

(٥) نصائح للقائم بالتبليغ والنصح للمسلمين

١ ـ أن يكون متمسكاً بالكتاب والسنة وذلك بأن يكون الداعية ذا عقيدة إسلامية صحيحة خالية من أي بدعة أو شبهة.

٢ ـ صحة العبادة وهذا أصل هام أيضاً في الداعية إلى الله تعالى، وكونه قدوة حسنة تنظر الناس إليه فتوقره وتحترمه وتقلده في عبادته.

٣ ـ أن يتعلم من خلال البيئة الدعوية التي ينطلق منها بدعوته علم التوحيد الذي هو الأصل الأصيل والأساس الذي تبنى عليه صحة

---

(١) من كتاب الكواشف الجلية لسلمان، ص٧٥٥.

الأعمال وأعني بذلك التركيز أولاً على تعليم أركان الإيمان ومنها إلى أقسام التوحيد.

٤ ـ الإخلاص وموافقة الأقوال للأعمال والسيرة للسريرة فلا انفصام ولا اضطراب في حياة الداعية، بل انسجام وتكامل والحقيقة أن هذا الأمر هام جداً في المسلم عامة وفي حياة الداعية خاصة بأن يحرص عليه ويتنبه إليه ويراعيه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [سورة الصف: آية ٢ ـ ٣].

٥ ـ الخلق الحسن والمعشر الطيب والسيرة الحميدة ومعاملة الناس بما تحب أن يعاملوك به من الأمانة واحترام العهود والتخلق بأخلاق الإسلام العالية.

٦ ـ إذا كان الداعي من أهل الأسباب الدنيوية كمزاولة مهنة أو حرفة معينة وجب عليه طلب العلم الشرعي المتعلق بهذه الحرفة أو تلك المهنة.

٧ ـ التورع عن مواطن الشبهات في الأموال وترك مواطن الريب في جميع الظروف.

٨ ـ التجافي عن دار الغرور، والتطلع إلى دار البقاء والحبور، وذلك بالتقلل من الدنيا، وعدم اللهث الشديد وراء حطامها، والتزود منها بزاد التقوى.

٩ ـ عدم حضور مجالس الأغنياء وأهل المراتب الدنيوية إلا للضرورة كتقديم نصيحة أو زيارتهم إذا كانوا أتقياء صالحين وغيرها فيما يحقق النفع للإسلام والمسلمين.